التحولات النقدية لدى عبد الملك مرتاض من السّياق إلى النّسق

د.الحاج جغدم

قسم اللغة العربية وآدابها– جامعة الشلف

I- الحركة النقدية في الجزائر من الإرهاص إلى التأسيس:

مما لا يختلف فيه اثنان، أن بواكير النقد الأدبي كانت منذ البدايات الأولى لظهور الإبداع الأدبي، إذ جذب انتباه الناقد فأطربه وأثار فيه شعور الدهشة والإعجاب، فلم يتمالك ذاته أمام هذا السّيل العارم من المتون الشعريّة والنّثرية، فأصبح الناقد يعبرّ عن إحساسه النّقدي بصورة عفوية فتراه يستحسن هذا لأنه يتوفّر على عناصر التعجيب* والدهشة ويستقبح ذاك لنفور النفس منه.

ولم تشهد الجزائر حركة نقدية مبكرة والسبب يعود إلى الظّروف السياسية والثقافية التي مرت بها، إبان الاستدمار الفرنسي: "وإذا علمنا أنّ الثقافة الاستعمارية بطبيعتها لا تسمح بنشر ثقافة أصيلة فضلا عن ترسيخها يمكن القول بعدئذ أن عدم ظهور نقد أدبي في هذه المرحلة يعدّ نسبيا طبيعياً"[1].

*- التعجيب بهذا النحو يكون نتيجة التطرق إلى المعاني الطريفة التي لا يهتدي إليها كل شاعر، أو بإدراك العلاقات والروابط الخفية التي تربط بين الأشياء، كالجمع بين مفترقين أو متناقضين لوجود رابط بينهما، وقد يكون نتيجة لحالات أخرى تستغربها النفس وتدهشها.

(1)- مخلوف عامر: متابعات في الثقافة والأدب، إتحاد الكتاب الجزائري، ط1، 2002، ص82.

ويضيف سعد الله انه "إذا كان قد أفاد البلاد العربية حين نقل إليها المطبعة والصحف والمجالس العلمية ونحو ذلك فإنّه في الجزائر على عكس ذلك تماما، إذ لم يأت لينشر حضارة وإنما جاء ليسلب أفكار شعب...."[1].

وتأكيدا لما سبق فإنّه "إذا كانت مهمة الأديب التّعبير عن أحاسيسه بما حوله وبالواقع الذي يصوّره بحيث يعكس ذلك في صورة جميلة مؤثرة، وبمعنى آخر، إذا كان الأديب يشكل المادة الأولى الأساسية ليجعل منها عملاً مؤثراً قادرًا على نقل الإحساس بالجمال من جهة وإبراز القيم الإنسانية من جهة أخرى، إذا كانت هذه مهمة الأديب المبدع، فإنّ مهمة الناقد هي تفسير هذا الجمال، وإظهار طريقة الأديب في الحث على الخير ونقد الحياة وما فيها من زيف أو ظلم أو شر"[2].

وعليه نحاول في هذه المداخلة الوقوف لدى الحركة النقدية العربية في الجزائر بصفة عامة وتجربة الناقد عبد الملك مرتاض* بصفة عامة، بوصفه صوتا متميزا من أصوات النقد الأدبي في الجزائر على غرار عبد الله خليفة الركيبي، محمد ناصر، محمد مصايف، محمد بن سمينة، أبو القاسم سعد الله، عمر بن قينة، (وهم من الرعيل الثاني في حركتنا النقدية)، عبد القادر المجاوي، المولود بن الموهوب، أبو القاسم الحفناوي، رمضان حمود (وهم من الرعيل الأول المؤسس للحركة النقدية العربية في الجزائر).

وركحًا على هذا التأسيس، وعلى وجه الخصوص تروم هذه المحاولة البحث في التحولات النقدية عند عبد الملك مرتاض هي السياق إلى النّسق، لنقف لدى مرحلة الدّراسات السياقية ثم تعرّج على مرحلة الدّراسات النّسقية، وكان ذلك على التّوالي

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الدب الجزائري، دار الآداب الوطنية للمكتبات، ط2، 1977، ص21.

(2)- عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د،ط)، (د،ت)، ص239.

*- ارنست رينان: E.RENAN مستشرق فرنسي من مؤلفاته (تاريخ اللغات السامية) الذي طرح فيه مسألة عدم وجود القصة

بين مطلع سنوات السّبعينات إلى منتصف الثمانينات، ومن منتصف الثمانينات إلى نهاية الألفية الماضية.

فالمرحلة الأولى تستمر بما يعرف لدى النقاد بالمناهج السياقية حيث دراسة الظاهرة الأدبية من الخارج، وفيها تكون للمؤلف السّلطة الكاملة على إبداعه، بينما في المرحلة الثانية تطغى المناهج النّسقية حيث دراسة الظاهرة الأدبية من الدّاخل، وبالتالي تعود السلطة إلى النص، قم في مراحل متأخّرة من النقد الأدبي أصبح القارئ من يصنع المعنى.

II- مرحلة الدراسات السّياقية:

لقد تداولت على النقد الأدبي عبر مسيرته مناهج متعددة، بدأت بالمقاربة التذوقية والتأثرية مروراً بالمقاربة الاجتماعية فالتاريخية والنّفسية في إطارها السياقي الذي يعتبره من المناهج الأولى التي ظهرت على الساحة النقدية، وكان تأثيره على الساحة الأدبية واضحا، وامتد حتى في الوطن العربي، وخاصّة الجزائر التي ظهرت بها هذه الدراسات ولو متأخرة نوعا ما، ومن بين النقاد الجزائريين الذين تأثروا بهذه المناهج الناقد عبد المالك مرتاض الذي بدا تأثره واضحا خاصّة في كتابه "في نظرية النّقد".

نحاول إذن أن نعرض في هذه المرحلة لعديد المؤلفات لنقف عند بعضها لإبراز أهم المناهج السّياقية التي اعتمدها الناقد عبد الملك مرتاض في تحليل الظاهرة الأدبية في الوطن العربي بعامة، وفي الجزائر بخاصّة:

- القصّة في الأدب العربي القديم.
- من المقامات في الأدب العربي.
- نهضة الأدب العربي المعاصر (1925-1954)
- فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954).

ولو قرأنا عناوين هذه المؤلفات لوجدناها تهتم بالأدبين الجزائري والغربي على السّواء، من دون تعصب لأدبنا الوطني الجزائري بوصفه جزءًا لا يتجزأ من الأدب العربي من جهة ومن جهة أخرى نجد هاجس الريادة [1] قد طغى في سياق حديثه، وهو الذي صرّح قائلا: "إنّ موضوع هذا الكتاب جديد وجدته تأتي إليه من أنّ أحدًا لم يتناوله على هذا النحو الدّراسي المفصل"[2]، ويقول أيضا: "لقد كان هناك فراغ مذهل في مكتبة الدّراسات الجزائرية حين جئت أكتب فصول هذا الكتاب بحيث لم تكن ظهرت إلى تلك السنة أي دراسته أدبية مفصلة على نحو ما"[3]، ولم يخف ريادته في معالجة فنون النثر الأدبي في الجزائر.

سنقف إذن عند أهم المناهج السياقية التي سلكها عبد المالك مرتاض في البدايات الأولى لدراساته النقدية، مبرزين المقاربة التأثرية أو الانطباعية، لنعرج على المقاربة الفنية :

- **المقاربة التأثرية:**

أطلق على هذه المقاربة بالتأثرية لأن الناقد يرصد لنا الأثر الانفعالي في نفسية القارئ (الدّارس)، إذ يعتمد في تقويمه للنص الأدبي على "ما يتركه في نفسه من أثر معين"، ونسمي أيضا عند عديد من النّقاد بالانطباعي.

ولو جئنا مؤلّف "القصّة في الأدب العربي"، لوجدنا الروح السياقية، وقراءة النص من الخارج، قد تجلّت بوضوح في هذا المؤلف، وغيره مما ذكرناه –سابقا–فالنّاقد

---

(1)– ينظر:حبيب مونسي، فعل القراءة ،مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد المالك مرتاض، دار الغرب، وهران، 2002، ص16.

(2)– عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1983، ص:05.

(3)– عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتابّ، الجزائر 1990، ص124.

عبد المالك مرتاض حينما تطرق لمسألة عدم وجود القصّة في الأدب العربي، إذ"حاول إشفاء الغليل والانتقام من المستشرق الفرنسي رينان"[1] .

وبناء على هذا التأسيس، فإنّ الناقد في أكثر المسائل خلافاً–من هذا المؤلف، انصرف للبرهنة على نقيض الزعم الحائر الذي زعمه "أرنست رينان"E.RENAN، والأمر نفسه ينطبق على باقي مؤلفات المرحلة الأولى خاصة ما نتناوله "فن المقامات" نهضة الأدب العربي، فنون النثر الأدبي.

– المقاربة التاريخية:

تعد هذه المقاربة من صميم الدّراسة التاريخية التي تأتي على ذكر الملابسات التي مهدت لميلاد النص الأدبي، أو التي أحاطت به تاريخيا بشكل وصفي تقريري للظاهرة الأدبية، حيث وقفنا على هذا في كتابه: "فن المقامات في الأدب العربي" حيث تابع هذا الشكل التعبيري الأدبي من يوم ظهوره إلى يوم أفوله، والأمر نفسه ينطبق على ذكر تاريخ النهضة الأدبية والصحفية والتاريخية في الجزائر، أمّا مؤلفه "النثر الأدبي في الجزائر" فقد أتى على ذكر الحياة العامة في الجزائر وخصائص كل شكل تعبيري نثري.

وعليه، فإن عبد المالك مرتاض في تطبيقاته بالمقاربة التاريخية يكون قد وقف على عديد الهنات التي وقع فيها الأدباء خصوصا في مؤلفه"نهضة الأدب العربي في الجزائر"، ومن هؤلاء "مبارك الميلي" و"أحمد توفيق المدني" خصوصا في الجوانب المتعلقة بالنهضة التاريخية.

ومن هنا، نتصور أن هذه المقاربة المنهجية تساعد مؤرخي الأدب على التعرف على تواريخ النصوص، ونسيبتها لأصحابها، ذلك أن الناقد عبد المالك مرتاض حينما

(1)– علي خفيف، التجربة النقدية عند عبد المالك مرتاض، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة عنابة، 1999، ص76.

انتابه الشك في تاريخ مسرحية"يوغرطة"راسل الكاتب "عبد الرحمان ماضوي"للتحقق من الأمر.

3- مرحلة الدراسات النّسقية:

لقد أدت هيمنة المناهج التي تأتي بالدراسة على الظاهرة من منظور خارجي (سياقي) إلى بزوغ مناهج جديدة سعت إلى إعادة الاعتبار للظاهرة الأدبية انطلاقا من منظور داخلي (نسقي) والتي تعتمد بدرجة رئيسة على بنية النص ونسقه، وقد بدا هذا المسار بظهور اللسانيات البنيوية، فأفرزت عدة مقاربات نذكر منها: البنيوية، والسيميائية ونظرية التلقي...الخ.

وأمام هذا المد الجديد من المناهج، صارت الساحة النقدية في الوطن العربي مهيأة لاستقبال هذا المارد النقدي، حيث دعا المشاركون في ندوة "القصة العربية" بمدينة "مكناس" المغربية إلى تبني هذا المشروع النقدي الجديد وتطبيقه على النصوص الأدبية عموما والسردية خصوصا[1].

وبناء على ما سبق، فإن عبد المالك مرتاض من النقاد الجزائريين الذين تأثروا بهذا المنهج الجديد، وبدا ذلك واضحا حينما شهدت كتاباته تحوّلا من مرحلة الدراسات السياقية مع نهاية فترة السبعينات إلى منتصف الثمانينات، إلى مرحلة الدراسات النسقية من أواسط سنوات الثمانينات إلى نهاية الألفية، أينما تمرد الناقد ليعود إلى الدراسات السياقية في شيء من النسقية في كتابيه "أدب المقاومة الوطنية الجزائرية" وقد علق الناقد حسب مونسي عن هذا التحول قائلا: "من النص الوثيقة إلى النص التّحفة"[2].

(1)- ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومه، الجزائر، (د،ط)، 2005، ص191.

(2) -حبيب مونسي، فعل القراءة، ص98.

وسنحاول في هذه العجالة أن نقف عند عديد مؤلفاته في مرحلة الدراسات النسقية لنذكر بعضا منها، وفي السياق نفسه نتحدث عن المقاربة البنيوية فالسيميائية ثم نظرية التلقي.

- النص الأدبي من أين؟ إلى أين؟
- بنية الخطاب الشعري.
- القصة الجزائرية المعاصرة.
- الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور.

– المقاربة البنيوية

تعد المقاربة البنيوية من بين المقاربات التي خصّها بالتحليل حيث يطرق في سياق حديثه عن البعد اللغوي لمصطلح البنيوية في إشارة الاختلاف بين مصطلحي "بنيوية" أم "نبوية" ثم عرج على البعد المعرفي لمصطلح بنيوي ليصل به المقام عند الخلفيات التاريخية للبنيوية : "إنّ الفضل في ظهورها يعود إلى ظهور الروائية الجديدة في فرنسا، الذي كان له الأثر المباشر في ظهور هذه الحركة النقدية، فالرواية الجديدة ثورة على تقاليد الرواية القديمة، وقواعدها الكلاسيكية...."[1]

وعليه، فإن مرحلة الدراسات النسقية بلغت ذروتها مع كتابيه: "النص الأدبي من أين ؟ إلى أين؟ "وبنية الخطاب الشعري"، حيث تطرق إلى الفن وهويته ووظيفته مشيرا إلى جذور بعض المفاهيم الألسنية الحديثة La Sémiotique كتابات الجاحظ الذي حسب رأيه يكون قد اصطنع هذا المفهوم الألسني.

وحسب تصور عبد المالك مرتاض، فإنّ النص الأدبي لا يمكن أن يؤخذ إلا من داخله، على اعتبار أن ثنائية الداخل بحث في لغة النص، والشيء الملاحظ أن الناقد خصّه بحثه في "بنية النص فالزّمن، والإيقاع الصّوتي، بطريقة إحصائية، وهو أمر لا

(1)– عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، ص201.

يستحسنه بعض النقاد "القارئ يجهد نفسه كثيرا في متابعة الجداول الإحصائية التي تعدّد تكرار وحدات لغويّة..."[1].

(1)- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدّبة، عالم المعرفة، الكويت، (د، ط)، 1988، ص44.